السِّياقُ وَأَثَرُهُ في بَيانِ الدَّلالَة:
دِراسَةٌ تأصِيلِيَّة تَطبيقِيَّة في غَرِيبِ الحَدِيثِ النَّبَوِيِّ

Context and its Function on Explaining Meaning: A study to establish the origin of context in Arabic linguistics and its application of the infrequent (*gharib*) status of the Prophetic Tradition

Konteks ayat dan kesannya kepada makna: Kajian empirikal terhadap Hadis-hadis *Gharib*

شاذلية سيد محمد السيد*

ملخص البحث

تُعدُّ النَّظريَّةُ السِّياقيَّةُ من أبرزِ النَّظرياتِ التي جادَ بها الدرسُ الدَّلاليُّ في الدِّراساتِ اللُّغويَّةِ الحديثةِ؛ لما للسِّياقِ من دورٍ واضحٍ في تجليةِ المعنى وما يكتنفُهُ من إيحاءاتٍ، ورغم أنَّ النَّظريَّة السِّياقيَّة بتفصيلاتِها تُنسبُ إلى علماءَ غربيينَ أبرزُهم العالمُ الغربيُّ (فيرث)، إلا أنَّنا لا نعدمُ أصولاً لهذه النَّظريَّة في تُراثِنا العربيِّ؛ بل من الدِّقةِ أن نقولَ إنَّ معظمَ العلومِ العربيَّةِ والشَّرعيَّةِ تتكئُ على السِّياقِ بنوعيهِ، فعلماؤنا لم يدرسُوا العناصرَ اللُّغويَّةَ الموجودةَ في النَّصِ فقط، وإنَّما بحثوا –كذلك– في المقامِ المحيطِ بالنَّصِ وقد فطن شرَّاحُ غريبِ الحديث في كُتُبِهم إلى السِّياقِ بوصفهِ أداةً مُهِمةً في فهمِ النَّصِّ وبيانِ مدلُولاتِ الألفاظِ ومدى ارتباطها ببعضِها ومناسبتِها لسِياقِها، كما أنَّ كُتُبَ الغريبِ تمثِّل مصدراً ثراً للدِّراسةِ اللُّغويَّةِ في مُستوياتِها المختلِفةِ، وتتجلَّى فيها تلكَ الفصاحةُ العاليةُ للنبيِّ المصطفَى صلَّى اللهُ عليهِ وسلَّمَ، وأنَّهُ كانَ مُراعِياً لأحوالِ الناسِ ومقاماتِهِم وبيئاتِهِم، فساعدَ ذلكَ الشرَّاحَ في فهمِ دلالةِ غريبِ الحديثِ.

الكلمات المفتاحية: السياق– التراث– غريب الحديث– السياق اللغوي– الدلالة.

* أستاذة بقسم اللغة العربية –كلية التربية– جامعة الجزيرة – السودان.

Abstract:
The theory of context is as one of the important aspects in semantics in modern linguistic studies. It helps to understand meaning and its implications better. Although Firth was a figure of reference in this discipline, the Arabic linguistic tradition has its own offering; the Islamic science of jurisprudence and Arabic are dependants on the study of context within which the text occurs. A number of hadith scholars had given their attention to context and went on explaining its importance in explaining the meaning of hadith. The compilations on the hadith of the infrequent(gharib) status, represent a very resourceful references for linguistic studies on its various aspects and levels. It further reveals that the prophetic discourse took into consideration the various human conditions, their environment and thinking which were key elements in helping the explainers of hadith the intended meaning of the those infrequent hadith.

Keywords: Context- Tradition- Infrequent Hadith- Language context- Semantic.

Abstrak:
Teori konteks dalam kajian linguistik moden dianggap sebagai salah satu teori yang penting untuk mengkaji semantik kerana konteks berperanan menerangkan makna dengan lebih jelas. Walaupun pada hakikatnya teori ini diasaskan oleh ilmuwan-ilmuwan barat terutamanya Firth, namun kita tidak ketinggalan dalam mengkaji teori ini, malah jelas bahawa kebanyakan ilmu-ilmu bahasa Arab dan syariah bergantung kepada konteks untuk memahaminya. Oleh sebab itu, para ilmuwan Arab tidak mengkaji teks dari sudut bahasa sahaja, malah membincangkan teks dari sudut yang lebih luas dan terperinci. Kepentingan mengetahui konteks ayat ini disedari oleh ulama –ulama hadis dalam mensyarahkan hadis-hadis gharib di dalam kitab-kitab mereka, hal ini adalah kerana konteks merupakan alat terpenting untuk mereka memahami maksud teks, makna

perkataan dan melihat hubungan antara kedua-duanya. Lebih-lebih lagi hadis-hadis ini merupakan sumber yang berharga dalam kajian linguistik untuk mencapai pelbagai tujuan. Jelaslah bahawa Nabi Muhamad s.a.w memiliki kefasihan bahasa yang tinggi yang kerana baginda memelihara kedudukan masyarakat dan persekitaran mereka. Hal ini banyak membantu ulama hadis dalam menerangkan maksud hadis-hadis gharib.

Kata kunci: konteks – turas – hadis gharib – konteks bahasa – semantik.

مهاد وتأسيس:

إنَّ أبرز النظريات اللغوية في دراسة المعنى واستجلاء جوانبه هي تلك التي اهتمت بدراسة السياق، وقد شغلت هذه النظرية حيزاً كبيراً في الدراسات اللسانية الحديثة على يد العالم الإنجليزي (فيرث)، وشرع علماء اللغة في تحديد حدودها وتفصيلاتها، وقبل هذا كان وعيُ علماء العربية قديماً بأهميَّة السياق في تبيين دلالات الألفاظ، واستعانوا به في تفسير النصوص وتحليلها بهدف الوصول إلى دلالتها بدقة. وتأتي هذه الورقة البحثية لتؤكِّد سبق علماء العربية فيه، فقد كان السياق محتكما أصيلاً صدر عنه علماء العربية بمختلف مشاربهم للوصول إلى دلالات الألفاظ، وهي إضافة لكثير من الجهود التي بُذلت للتأصيل لهذه النظرية التي تُنسب للدراسات اللغوية الغربية وتراثنا العربي ملئ بتطبيقاتها التي ينبغي أن نفخر بها وننظر لها بعين الإكبار، بيد أنَّ حظ الحديث النبوي كان قليلا من التطبيق، وقد اخترت كتب غريب الحديث[1] لأنَّها تُمثِّل ثروةً لغويةً لا يُستهان بها، فهي قد أغنت العربية بما تضمَّنته من تفسيرات وتعليلات وأقوالٍ للعلماء واستشهاداتهم على لغة الحديث، وبما حوته من مناقشات وحوارات بين أئمة هذا العلم المؤلفين فيه، فالقارئ لتلك الكتب يحسُّ بمتعة هذه اللغة وثرائها

وسحرها، ويقتنِصُ منها دراً لغوية في الألفاظ والاشتقاق والتصريف والنحو والمجاز وغير ذلك من علوم اللغة وفنونها، فآثرت أن تكون ميدانا للتأصيل والتطبيق لهذه النظرية.

تعريف السياق:

إنَّ السياق من الناحية اللُّغوية مصدرٌ من ساق يسوق سوقاً وسياقاً، ويدور الجذر المعجمي لـ(سوق) واشتقاقاتها حول عددٍ من المعاني، وما يعنيننا هنا هو معنى التتابع والتوالي الذي ذكره ابن منظور، قال: "وقد انْساقَت وتَساوَقَت الإبلُ تَساوُقاً إذا تتابعت وكذلك تقاوَدَت فهي مُتَقاوِدة ومُتَساوِقة وفي حديث أُم معبد فجاء زوجها يَسُوق أعْنُزاً ما تَساوَقُ أي ما تتابَعُ والمساوَقة المتابعة كأنّ بعضَها يسوق بعضاً".[٢]

إنَّ هذا المعنى يخدم المعنى الاصطلاحي للسياق حيث تتوالى عناصر يتحقق بها التركيب، وتتوالى أحداث ومواقف مصاحبة لأداء هذا التركيب اللغوي، وحتى يتبيَّن ذلك نأتي إلى مفهوم السياق عند العلماء، فقد اهتمَّ الدرس اللغوي الحديث بالسياق؛ لأنَّ المعنى المعجمي ليس كل شيء في إدراك المعنى، فالكلمات في الواقع ليست لها معانٍ محددة وإنما لها استعمالات.[٣]

فالسياق إطار عام تنتظم فيه عناصر النصِّ ووحداته اللغوية، ومقياس تتصل بوساطته الجمل فيما بينها وتترابط، وبيئة لغويَّة وتداوليَّة[٤] ترعى مجموع العناصر المعرفية التي يقدمها النص للقارئ.[٥] وعالم اللغة إذا أراد أن يصل إلى المعنى الدقيق للحدث اللغوي أو الكلامي لابد له أن يبدأ أولاً بوصف الظواهر اللغويَّة المتصلة به ومحاولة تقعيدها وفقاً لخواصها ووظائفها في التركيب،[٦] وقد نصَّ فندريس على أنَّ الذي يُعيِّن قيمة الكلمة إنَّما هو السياق "إذ إنَّ الكلمة توجد في كل مرة تستعمل فيها في جوٍ يحدِّد معناها تحديداً مؤقتاً، والسياق هو الذي يفرض قيمة واحدة بعينها على الكلمة بالرغم من المعاني المتنوعة التي بوسعها أن تدُّل عليها".[٧]

إنَّ دراسة المعنى بالنظر إلى السياق تعزِّز الجانب الاجتماعي للغة، وإنَّ الصورة الكلية للمعنى تكتمل باستيفاء عناصر أخرى تتمثَّل في الظروف المحيطة بالنصَّ؛ لهذا فإنَّ مفهوم السياق يقوم على عناصر لغويَّة وعناصر غير لغويَّة بتضافرها يتحقَّق المعنى. وقد عدَّ ستيفن أولمان النظرية السياقيَّة التي ساقها فيرث – إذا طُبِّقتْ بحكمةٍ – حجر الأساس في علم المعنى.[٨]

أنواع السياق:

كان للاهتمام الذي وجده السياق دوره في تقعيد النظرية السياقيَّة وتوضيح تفصيلاتها، ووضع منهجيَّة لها، ففصَّل العلماء في أنواع السياق، وصنَّفوه إلى:[٩]

أ- **السياق اللُّغوي *(المقالي)*** Context Linguistic : وهو سياق داخلي يتمثَّل في البيئة اللغوية للتركيب اللغوي، ويشمل العناصر التالية:

١) الوحدات الصوتية: فكل كلمة لها سياق فونيمي يحدِّد معناها، فإذا تغيَّر فونيمٌ تغيَّر المعنى.

٢) الوحدات الصرفية: تتنوُّع الوحدات الصرفية في أيِّ تركيب لغوي وتبعاً لذلك تختلف دلالاتها، فصيغ اسم الفاعل تدُّل على الفاعلية، وصيغ اسم المفعول تدُّل على المفعولية، وكذلك صيغ المبالغة والتفضيل ... الخ، لكل واحدة دلالتها وتأثيرها في الكلام، فأيُّ صيغ صرفية تحمل دلالة تساهم في بيان الدلالة العامة للتركيب.

٣) التركيب النحوي: يتضح المعنى النحوي من خلال ترتيب العناصر داخل التركيب وهكذا تختلف المعاني، وهناك معانٍ عامةٍ مستفادةٍ من التراكيب والأساليب،[١٠] مثل الاستفهام والنفي والنهي والأمر والشرط وغيرها،كما أنَّ هناك دلالات خاصة لمعانٍ نحويَّة يدُّل عليها تركيب الجملة مثل الفاعلية والمفعولية والحاليَّة.. الخ. وللعلامة

الإعرابية كذلك دورها في توضيح المعنى، فلكل علامة إعرابية دلالة يوجَّه بها المعنى نحو دلالة الفاعلية أو المفعولية أو غيرها من المعاني النحوية.

٤) المعنى المعجمي: يتمثَّل في المعاني المثبتة في المعاجم لكل كلمة.

٥) المصاحبة: وهي الكلمة التي تصاحب كلمات بعينها؛ فيختلف معنى الكلمة تبعاً لما تصاحبه من كلماتٍ مثل: بنت الدهر (المصيبة)، بنت الكرم (الخمر)، بنت شفة أو لسان(الكلمة)، بنات آوي (الثعالب)، بنات الدهر (المصائب).

٦) الأسلوب البلاغي: حيث تحمل الأساليب البلاغية معاني تختلف عن المعنى المعجمي لكل كلمة مفردة، مثل: طويل النجاد (شجاع)،كثير الرماد (كريم)، شمُّ الأنوف (أعزة)، شمَّر عن ساقه (استعدَّ).

٧) ظواهر الأداء المصاحب للأداء اللغوي: تتمثَّل في النبر والتنغيم والفواصل والوقف، فإذا قلت: (أنت ذكيَّة) فهذه تحتمل معنيين مختلفين، فقد تعني المدح، وقد تكون دالة على الغباء استهزاءً وسخرية، وكل ذلك يتبيَّن من النغمة التي تُؤَّدى بها هذه العبارة.

وزبدة القول هنا إنَّ للكلام سياقاً داخلياً يتمثَّل في العناصر التي ذكرناها، وأنَّ الكلمة الواحدة تختلف باختلاف السياق الذي تَرِدُ فيه، ونضرب لذلك مثالاً يُجمل لنا الحديث عن السياق اللغوي، وهو كلمة قطع التي يختلف معناها حسب السياق اللغوي الذي يكتنفها:

- قطع الحبل : فصل بعضه عن بعض.
- قطع دابرهم : استأصلهم.
- قطع النهر : عبره.
- تقطَّعوا أمرهم : تقسموه وتفرقوا.
- قطع الرحم : عقها ولم يصلها.
- قطع الحديث : لم يكمله.

- انقطعتِ الأخبار : لم تصل إلينا.

ب- السياق غير اللغوي أو سياق الحال Context of situation: يُسمَّى –أيضاً– سياق الموقف أو السياق الاجتماع، ويتمثَّل في كل العناصر غير اللغوية المحيطة بالعملية اللغوية، وقد عبَّر عنه علماء العربية قديماً أصدق تعبير حين قالوا : "لكلِّ مقامٍ مقالٌ" ويشمل سياق الحال جميع القرائن المعينة على الكشف عن المراد، فهو: "السياق الذي يجري في إطاره التفاهم بين شخصين ويشمل ذلك زمن المحادثة ومكانها، والعلاقة بين المتحادثين، والقيمة المشتركة بينهما، والكلام السابق للمحادثة ".[١١] ومن الأشياء التي يشملها هذا السياق:المتكلِّم والمستمع وما يتعلق بهما من صفات تميِّزهما، نوع الخطاب، غاية الخطاب وأثره، مكان الكلام وزمانه وفي أيِّ جوٍّ يُقال، مدى تعلُّق الخطاب بما سبقه، الأفعال والإشارات المصاحبة للكلام.[١٢]

أهميَّة السِّياق:

تكمن أهمية السياق في كشفه عن دلالات الأبنية اللغوية التركيبية بصورة دقيقةٍ لا ينصرِف الذهن إلى غيرها من الدلالات التي يمكن أن تتضمنها أو تؤديها، سيما تلك التراكيب المحتملة لأكثر من معنى، "وبوساطته تجاوز الكلمات حدودها المعجميَّة المعروفة إلى دلالات جديدة قد تكون مجازية أو إضافية أو نفسية أو إيحائية أو اجتماعية، أو غير ذلك من الدلالات".[١٣] ونظراً لهذا الدور الذي يؤديه السياق كان اعتماد العلماء عليه في الكشف عن ازدواجيَّة المعنى للكلمة الواحدة، وعن المعنى الحقيقي والمعنى المجازي، ومعالجة الغموض الذي يعتري بعض الدلالات بسبب المشترك اللفظي أو الترادف أو التضاد، ونجد هذا عملياً عند علماء العربية الذين تناولوا هذه القضايا ودافعوا عن وجودها، يقول ابن الأنباري مفنِّداً حجج الذين أنكروا الأضداد في اللغة، وهي نوع من المشترك اللفظي: "إنَّ كلام العرب

يصحح بعضه بعضاً ويرتبطُ أوَّلُه بآخره، ولا يُعْرَف معنى الخطاب منه إلا باستيفائه واستكمال جميع حروفه؛ فجاز وقوعُ اللفظة الواحدة على المعنيين المتضادين؛ لأنها تتقدمها ويأتي بعدها ما يدلُّ على خُصُوصيَّة أحد المعنيين دون الآخر فلا يُراد بها في حال التكلم والإخبار إلا معنًى واحد، فمن ذلك قولُ الشاعر:

كلُّ شيء ما خَلا الموت جَلَلْ ..... والفتى يَسْعَى ويُلْهيه الأمَل

فدَّل ما تقدَّم قبل جلل وتأخر بعده على أن معناه كل شيء ما خلا الموت يسير ، ولا يتوهم ذو عقل وتمييز أن الجلل هنا معناها عظيم".[١٤] فالسياق اللغوي لا يحتمل غير هذا المعنى ألبتة.

وثَمَّة حادثة ذكرتها كتب التاريخ تعضِّدد ما ذكرناه من أهمية استصحاب السياق في بيان الدلالة، وهي أنَّ الخوارج عندما خرجوا على عليٍّ رضي الله عنه كانوا يهتفون: (لا حُكم إلا لله) ولا يشُك في صدق هذه العبارة مسلم حينها أو الآن، إلا أنَّ الإمام عليَّاً رضي الله عنه لم يُجرِّد هذه العبارة من سياقها الحالي الذي وردت فيه، فردَّ عليهم بقوله: (كلمةُ حقٍّ أُريدَ بها باطلٌ).[١٥] فكان المحتكم في تجلية المقصود هو ما رمى إليه هؤلاء الخوارج من الفتنة السياسيَّة، وإيهام الآخرين بأنَّ الإمام رضي الله عنه قد رفض حُكم الله عزَّ وجلَّ، وصارت عبارته تُقال في كل موقف مماثل.

الاهتمام بالسياق في التراث العربي:

ليس من العسير التوفُّر على مقولات لاهتمام علماء العربيَّة قديماً بالسياق اللغوي وغير اللغوي وتطبيقاتهم لأهميته في بيان الدلالة، فكان استشرافهم لأثره في تعرُّف مدلولات الألفاظ كبيراً، واتَّكأوا عليه في تفسير النصوص والتماس دلالتها ، يقول كمال بشر: "إنَّهم لم يقتصروا في النظر في بنية النصِّ اللغوي كما لو كان منعزلاً عن العوامل الخارجية التي تلفُّه وتُحِيط به، وإنَّما أخذوا مادتهم اللغويَّة – على ما يبدو – من معالجتهم لها على أنَّها ضرب

من النشاط الإنساني الذي يتفاعل مع محيطه وظروفه".[١٦] وقد انتظم هذا الاهتمام العلماء بمختلف مشاربهم، المفسرين والأصوليين واللغويين والنحويين والبلاغيين والأدباء والنقاد.

أما المفسرون فقد كان السياق عندهم حجر الزاوية في توجيه دلالات الآيات، وأصلاً من أصول التفسير ، قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "بل ينظر في كل آية وحديث بخصوصه وسياقه وما يُبيِّن معناه من القرائن والدلالات، وهذا أصل عظيم مهم نافع في باب فهم الكتاب والسنَّة".[١٧] وقد اعتنى المفسرون بسياق النص عند تفسيرهم للآية؛ بل كانت عنايتهم بالسياق الكلي للآيات القرآنية فلا يفسرون الآية بمعزل عن بقية الآيات في سياقها. وتمثَّل سياق الحال عندهم في معرفة أسباب النزول، وهي بلا شك خارجة عن السياق اللغوي، لكنها موجهة له، وعدم معرفتها يؤدِّي إلى فقدان المعنى المراد، وهكذا كان السياق مُعِيناً للمفسرين على "تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق وتنوع الدلالة".[١٨]

أما الفقهاء والأصوليون فقد اعتمدوا على السياق في بيان معاني النصوص الشرعية واستخراج الأحكام منها، "وقد وعوا تماماً أنَّ ثمَّة نوعين من القرائن السياقيَّة، الأولى هي القرائن اللفظيَّة، والثانية هي القرائن المقاميَّة، وفهموا الأثر الذي تقوم به هذه القرائن في تحديد دلالة النص"،[١٩] وقد كانت الإشارات المتقدمة للسياق عند الإمام الشافعي ، قال في الرسالة: "فإنما خاطب الله بكتابه العرب بلسانها على ما تعرف من معانيها وكان مما تعرف من معانيها اتساع لسانها، وإنَّ فطرته أن يخاطب بالشيء منه عاما ظاهرا يُراد به العام الظاهر ويستغني بأول هذا منه عن آخره، وعاماً ظاهراً يُراد به العام ويدخله الخاص؛ فيستدل على هذا ببعض ما خُوطِب به فيه، وعاما ظاهرا يُراد به الخاص، وظاهر يُعرف في سياقه أنه يُراد ظاهره فكل هذا موجود علمه في أول الكلام أو وسطه أو آخره".[٢٠] وذهب الغزالي إلى أنَّ هناك ألفاظاً لا تُفهم دلالتها إلا بالحركات والإشارات وتعبيرات الوجه ، وفعل المتكلم بصورة عامة، قال: "بل هي كالقرائن التي يعلم بها خجل الخجل ووجل الوجل وجبن الجبان، وكما

يُعلم قصد المتكلم إذا قال السلام عليكم أنه يريد التحية أو الاستهزاء واللهو، ومن جملة القرائن فعل المتكلم فإنَّه إذا قال على المائدة : هات الماء فُهم أنَّه يريد الماء العذب البارد دون الحار الملح".[٢١]

وإخال أننا لو جئنا نُحصي الأحكام التي استنبطت من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف اعتماداً على السياق لضاقت عنها الصفحات، وقد اكتفينا بما يدُّل على استشرافهم له واستنادهم إليه.

ونستطيع أن نلتمس أقدم إشارات اللغويين والنحويين إلى السياق عند الخليل، ففي توجيهه للحذف في قوله تعالى: ﴿ حَتَّى إِذَا جَاؤُوهَا وَفُتِحَتْ أَبْوَابُهَا﴾،[٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُواْ إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ﴾،[٢٣]وقوله تعالى: ﴿ وَلَوْ تَرَىَ إِذْ وُقِفُواْ عَلَى النَّارِ﴾[٢٤]عندما سأله تلميذه سيبويه عن الجواب في كلامهم، فقال: "إنَّ العرب قد تترُك في مثل هذا الخبر الجواب في كلامهم لعِلم المخبَر لأي شيءٍ وضِع هذا الكلام".[٢٥]

ونجد الإشارات عند ابن جني لأثر سياق الحال، قال: "ألا ترى إلى قوله:

تَقُولُ وَصَكَّتْ وَجهَهَا بِيَمِينِها .... أَبَعلِي هَذَا بِالرَّحَي المتَقَاعِسِ

فلو قال حاكياً عنها أبعلي هذا بالرحى المتقاعس من غير أن يذكُر صكَّ الوجه لأعلمنا بذلك أنها كانت متعجبة منكرة، لكنه لما حكى الحال فقال (وصكَّت وجهها) عُلِم بذلك قوة إنكارها وتعاظم الصورة لها، هذا مع أنَّك سامعٌ لحكاية الحال غير مشاهدٍ لها، ولو شاهدتها لكنت بها أعرف ولعِظَم الحال في نفس المرأة أبين، وقد قيل: ليس الخبر كالمعاين".[٢٦] قلت: وعبارته الأخيرة هذه آكد في الدلالة على أثر سياق الحال في إيضاح المعنى. وذكر بعد هذا أنَّ تمام المعنى لا يتمُّ إلا بالنظر إلى وجه المتحدِّث، قال: "أفلا ترى إلى اعتباره بمشاهدة الوجوه، وجعلها دليلاً على ما في النفوس، وعلى ذلك قالوا: رُبَّ إشارةٍ أبلغُ من عبارة ... وقال لي بعض مشايخنا رحمه الله أنا لا أحسن أن أكلِّم إنساناً في الظلمةِ".[٢٧]

أما التدليل على احتفاء البلاغيين والأدباء والنقَّاد فيمكن الاكتفاء فيه بعبارتين طالما امتلأت بهما كتبهم، وهما: (لكلِّ مقامٍ مقال)، و(مطابقة الكلام لمقتضى الحال). فالعبارتان من جوامع الكلم، وتضعان في الإطار العام لدراسة السياق عندهم، وقد طبقوا ذلك في أحكامهم البلاغية على النصوص، كما تناولوا البيئة وأثرها وغير ذلك مما له صلة بالسياق الاجتماعي، وهو بلا شك يُعِين الناقد على الفهم السليم للنصِّ، سيما النصوص الشعرية التي يبدو أثر البيئة والعادات والطبائع واضحاً في شاعرها وشعره.

هذا وقد تُوِّجت الدراسة السياقية عند القدماء بنظرية عبد القاهر الجرجاني ؛ حيث ربط الكلام بمقام استعماله وسياقه اللغوي، وقد تلقَّى العلماء بعده هذه النظرية بالشرح واعتمدوا عليها في التحليل، وهي نظرية قائمة على مراعاة السياق الذي يرِدُ فيه الكلام، وإدراك العلاقات القائمة بين الألفاظ في التركيب الواحد. وهكذا تواترت الإشارات والنصوص الواضحة لعلماء العربية قديماً، وما ذكرناه يَفِي بمطلوبنا فقد أردنا به الإذكار لا الإكثار، ويمكننا القول بأنَّ الدراسة السياقيَّة عند القدماء مع وفرتها وثرائها قد غلب عليها جانب التطبيق أكثر من التنظير ووضع المنهج لنظرية سياقيَّة على نحو ما هو موجود في الدراسات الحديثة التي يحمد لها تأطيرها للسياق علمياً.

نماذج تطبيقيَّة لأهميَّة السياق في بيان دلالة ألفاظ غريب الحديث النبوي:

لا يختلف الحديث النبوي عن بقية النصوص اللغوية في استناد فهم دلالته إلى السياقين الداخلي (اللغوي) والخارجي (سياق الحال)، وقد حرص شرَّاح غريب الحديث على بيان دلالته في ضوئها ، وهذه مجموعة من الأمثلة التي توضِّح استنادهم للسياق اللغوي:

التركيب النحوي وتوجيه دلالة الغريب:

من الملامح البارزة التي اتكأ عليها الشرَّاح في توجيه دلالة الحديث، فكان للعلامة الإعرابية والتنكير والتعريف والحذف وتقديراته دور كبير في توجيه دلالة الحديث، وهي من مقومات

السياق اللغوي (كما أسلفنا)، ففي الحديث: (ذكاةُ الجَنِينِ ذكاةُ أُمِّه)، يُرْوَى هذا الحديث بالرفعِ والنصبِ فمن رَفَعَه جَعَلَه خَبَرَ المبتدأ الذي هو ذكاةُ الجَنينِ فتكونُ ذكاةُ الأمِّ هي ذكاةُ الجَنين، وعلى هذا فلا يحتاجُ إلى ذبْحٍ مُسْتَأنَفٍ كما رُوي بنصب ذكاة الثانية، والتقديرُ ذكاةُ الجنين كذكاةِ أُمِّه فلما حُذِفَ الجارُّ نُصِبَ أو على تقدير يُذَكَّى تَذْكِيَةً مِثل ذكاةِ أمه فحذَفَ المصدر وصفَتَه وأقامَ المضاف إليه مُقامه فلا بُدَّ عنده من ذبْح الجَنين إذا خَرج حيًّا. ومنهم مَن يَرْوِيه بنصب الذَّكاتَين: أي ذَكُّوا الجنين ذكاةَ أُمّه.[٢٨] وبناءً على اختلاف الحركة الإعرابية والتقدير اختلف التأويل والحكم الفقهي المترتِّب عليه.

وفي حديث (ما أنا من دَدٍ وَلاَ الدَّدُ منّي)، قال ابن الأثير: "الدّدُ: اللَّهْوُ واللَّعبُ وهي محذوفُة الّلام وقد استُعْملت متَمَّمةً: دَداً كَندًى ودَدَنٌ كَبَدَنٍ ولا يَخْلُوا المحُوف أن يكون ياءً كقولهم يَدٌ في يَدْيٍ أو نُوناً كقولهم لَدُ في لَدُنْ. ومعنى تنْكير الدَّدِ في الجملة الأولى: الشيِّاعُ والاسْتِغْرَاقُ وأن لا يَبْقَى شيء منه إلا وهو مُنزَّه عنه: أي ما أنا في شيءٍ من اللَّهو واللَّعِب. وتَعريفه في الجملة الثانيةِ لأنه صار مَعْهوداً بالذكر كأنه قال: ولا ذلك النوعُ مِني وإنما لم يَقُل ولا هو مني لأنّ الصريح آكَدُ وأبْلغُ. وقيل اللامُ في الدَّد لاسْتغْراق جنس اللَّعِب. أي ولا جنسُ اللَّعب مني سواء كان الذي قَلْتُه أو غيرُه من أنواع اللَّعب واللَّه".[٢٩] واختار الزمخشري الأوّل وقال: "ليس يَحسُن أن تكون لِتَعْريف الجنسِ؛ لأن الكلام يتفكك ويَخرجُ عن التِئامِه. والكلام جُمْلتان وفي الموضعين مضافٌ محذوفٌ تقديره: ما أنا من أهل دَدٍ ولا الدَّدُ من أشْغالي".[٣٠] فللتنكير والتعريف في الحديث سببه ودلالته، وتقدير المحذوف جاء اعتمادا على السياق المقالي، وهذا التحليل الدقيق لكل ألفاظ الحديث يؤكد جلياً أن شرَّاح الغريب قد صدروا عن وعيٍ عميق بدور كل حرف أو كلمة في البنية اللغوية في تحديد المعنى المقصود تحديدا دقيقاً.

أما استنادهم للسياق المقالي في تقدير الحذف بجانب ما جاء في الحديث السابق تقدير الحذف في حديث: (من توضَّأَ للجمعة فبِهَا ونِعْمت ومن اغتسل فالغسلُ أفضل).

قال الزمخشري: "الباء متعلقة بفعل مضمر أي فبهذه الخصلة أو الفَعْلة يعنى بالوضوء يُنَالُ الفَضْل ونِعْمَت أي نعمت الخَصْلَة هي فحذف المخصوص بالمدح، وسُئِل عنه الأصمعي فقال: أظنُّه يريد فبالسنّة أخذَ وأَضَمر ذلك إن شاء اللّه".[٣١] فتقديرات الحذف في هذا وغيره تأتي من تركيب النص وما فيه من ألفاظ يفيء إليها الحذف وتدل عليه.

وللسياق اللغوي دور في توجيه دلالة الأمر في الحديث من ذلك حديث: إنَّ مما أدرك الناس من كلام النبوة الأولى (إذا لم تستحي فاصنع ما شئت)، فقد رد أبو عبيد على من أوَّلَ الأمر بأنه يريد الرجل أن يعمل الخير فيدعه حياء من الناس كأنه يخاف مذهب الرياء يقول: فلا يمنعك الحياء من المِضِيِّ لما أردت، قال أبو عبيد: "ليس يجيءُ سياقه ولا لفظه على هذا التفسير، ولا على هذا يحمله الناس إنما وجهه عندي أنه أراد بقوله: إذا لم تستحي فاصنع ما شئت إنما هو من لم يستحى صنع ما شاء على جهة الذَّم لترك الحياء ولم يرد بقوله: فاصنع ما شئت أن يأمره بذلك أمرا وهذا جائز في كلام العرب أن يقولك افعل كذا وكذا! وليس يأمره ولكنه أمر بمعنى الخبر ألم تسمع حديث النبي عليه السلام: من كذب عليّ متعمدا فليتبوَّأ مقعده من النار؟ ليس وجهه أنه أمره بذلك هذا ما لا يكون، إنما معناه: من كذب عليّ متعمدا تبوَّأ مقعده من النار أي كان له مقعد من النار إنما هي لفظة أمر على معنى الخبر وتأويل الجزاء؛ وإنما يراد من الحديث أنه يحثُّ على الحياء ويأمر به ويعيب تركه".[٣٢] وهو عين يحتمله سياق الحديث وما نفهمه منه.

البنية الصرفية وتوجيه دلالة الغريب:

وهي مما توافر أيضا عند شرَّاحه ، فقد قرر علماء العربية أنَّ لكل صيغة صرفية دلالة في الكلام، فأي زيادة في مبنى الكلمة تؤدي لزيادة في معناها، والمصادر على وزن الفعلان تدل على الحركة والاضطراب، واستفعل تأتي في أكثر أمرها للطلب، والمصادر المضعفة تدل على تكرير الفعل،[٣٣] كما تحدَّثوا عن تناوب الصيغ الصرفية، ففعيل يمكن أن تأتي بمعنى فاعل أو

مفعول، والسؤال هنا كيف يمكن تحديد الصيغة المقصودة، والجواب بلا شك بالرجوع للسياق اللغوي ففي الحديث: "إن اللّه حيِيٌّ سَتِيرٌ يحب الحَياء والسَّتْر " جاءت ستير: فعيل بمعنى فاعل أي من شَأنه وإرادتَهِ حُبُّ السَّتر والصَّون،[٣٤] وحديث الأضاحي (لا يَجُوز فيها الكَسِيرُ البَيِّنَةُ الكَسْر)، أي المُنْكَسِرة الرِّجْل التي لا تَقْدر على المشي فَعِيل بمعنى مَفعول".[٣٥] وقد يحتمل السياق أحيانا الصيغتين معا، ففي الحديث:"كلُّ المسْلِمِ عَنْ مُسْلِمٍ مُحَرَّم أَخَوانِ نَصِيرانَ"، قال ابن الأثير: "أَي هما أَخَوانِ يَتَناصَران ويَتعاضَدان والنَّصِير فعيل بمعنى فاعِل أَو مفعول لأَن كل واحد من المتَناصِرَيْن ناصِر ومَنْصُور".[٣٦]

السياق اللغوي وتخصيص دلالة الحديث:

من الظواهر المعروفة في اللغة أنَّ بعض الألفاظ تكتنفها عدد من الدلالات، أو تحمل دلالة عامة تنطبق على عدد من الأشياء، فيأتي السياق ليكشف عن الدلالة التي ينبغي أن يصرِف اللفظ إليها ويخصه بها، من ذلك في غريب الحديث:

حديث عمر: "صوموا من الوضح إلى الوضح ، فإن خفي عليكم فأتموا العدة ثلاثين"،[٣٧] فقد ذكر الخطابي،[٣٨] وابن الجوزي،[٣٩] والزمخشري،[٤٠] أنَّ أصل الوضح البياض والضوء، ويطلق على بياض الصبح والقمر واللبن وغيره، فالبياض هنا دلالة عامة، فرجَّح شراح الغريب أن يكون المعنى المراد في الحديث من الهلال إلى الهلال؛ قال ابن الأثير: "لأن سياق الحديث يدل عليه"،[٤١] ويعني بسياق الحديث ما جاء في تمامه (فإنْ خَفِيَ عليكم فأتِمُّوا العِدّةَ ثلاثين يوما)، فكان استنادهم إلى السياق اللغوي للحديث في تخصيص دلالة الوضح بالهلال ليس إلا، فكلمة صوموا التي قبلها وعبارة (فإنْ خَفِيَ عليكم فأتِمُّوا العِدّةَ ثلاثين يوما) التي بعدها، جعلت السياق لا يحتمل إلا هذه الدلالة.

ومن الألفاظ التي تعدُّ من المشترك اللفظي كلمة (المولى) والمعوَّل عليه عند شرَّاح الغريب لبيان دلالة هذه الكلمة هو السياق اللغوي الذي ترد فيه، قال ابن الأثير: "وقد تكرر

ذكر (المَوْلَى) في الحديث وهو اسْمٌ يقَع على جَماعةٍ كَثِيرَة فهو الرَّبُّ والمالِكُ والسَّيِّد والمُنْعِم والمُعْتِقُ والنَّاصر والمُحِبّ والتَّابع والجارُ وابنُ العَمّ والحَلِيفُ والعَقيد والصِّهْر والعبْد والمُعْتَقُ والمُنْعَم عَلَيه وأَكْثرها قد جاءت في الحديث فَيُضاف كُلّ واحِدٍ إلى ما يَقْتَضيه الحديثُ الوَارِدُ فيه"،[٤٢] وبناءً على ذلك واعتمادا على السياق اللغوي شرح ابن الأثير معنى كلمة المولى، ففي الحديث (مَوْلى القَوْمِ منهم) كانت بمعنى العبد،[٤٣] وفي حديث (مَن كُنْتُ مَوْلاه فَعَلِيٌّ مَوْلاه)[٤٤] بمعنى المحب التابع، وهكذا.

وحديث أبي هريرة أن النبيَّ صلى الله عليه وسلم قال: (سَبق المُفَرّدون، قالوا وما المفرَّدون؟ قال: المُسْتَهتِرون بذِكْر الله، يعني الذين أولعوا به)[٤٥] فكلمة مستهتر أصلها هتر، وإذا رجعنا لهذه المادة في اللسان نجد الهتر تعني الولوع بالشيء، والكذب والخرف، والسقط من الكلام والخطأ فيه، واستهتر ذهب عقله فيه وانصرفت همته إليه حتى أكثر القول فيه بالباطل، ومنه حديث ابن عمر: "اللهمَّ إني أعوذ بك أن أكون من المستهترين".[٤٦] وهكذا حملت الكلمة دلالتين متضادتين، وسبب ذلك أنَّ أصل المادة عام في الولوع بالشيء حقاً أو باطلاً، والمحتكم إليه هنا هو السياق الذي وردت فيه الكلمة، فما قبلها وما بعدها من ألفاظ يجعلنا لا نصرفها إلا لمعنى الولوع بذكر الله والإكثار منه وهو – بلا شك – حقٌّ وليس بباطل أو من سقط الكلام. وفي العصر الحديث صارت كلمة مستهتر تطلق على من أُولَع بالاستخفاف بالآخرين ولم يُراعِ حرمة.

السياق وبيان تطور دلالات الألفاظ:

من نافلة القول الحديث عن أنَّ الدين هو أحد العوامل المؤدية لتطور دلالات الألفاظ، وقد نقل لنا الإسلام دلالات كثير من الألفاظ التي كانت العرب في الجاهلية بدلالة معينة، وأياً ما كان هذا التطور تخصيصاً أو نقلاً مجازياً، فهو استخدام للألفاظ في دلالات غير ما عرفه العرب قبل الإسلام، فصار للفظ معنى في اللغة، ومعنى جديدا في الشرع، وقد يختفي المعنى

الحقيقي ويصبح المعنى المنقول إليه بعد الإسلام هو المتبادر إلى الذهن، والمرجع في ذلك للسياق الوارد فيه ، ونضرب لذلك مثالاً بكلمة القنوت؛ فأصل القنوت في اللغة القيام،[٤٧] وذهب ابن منظور إلى أن أصله الدعاء،[٤٨] ويبدو أنَّ هذا هو المعنى الذي نُقل إليه بجانب معانٍ أخرى، قال ابن قتيبة: "وانَّما قيل للدُّعاء قنوت لأنَّه كان يُدعى به وهم قيام قبل الركوع أو بعده فسمِّي باسم القيام على ما بينت من تسمية الشيء باسم غيره إذا كان منه بسبب".[٤٩]

وثمة معانٍ أخرى أكسبها له الإسلام ووردت في الحديث إلا أنَّ شُرَّاح الغريب صرفوها إلى المعنى المراد من هذه المعاني حسب السياق، قال ابن الأثير: وقد تكرّر ذكر القُنوت في الحديث ويَرِدُ بِمعانٍ مُتعَدّدة كالطَّاعة والخُشوع والصلاة والدُّعاء والعِبادة والقِيام وطول القِيام والسُّكوت فيُصْرف في كل واحدٍ من هذه المعاني إلى ما يَحْتَمِله لفظُ الحديث الوارِد فيه"،[٥٠] ولا أرى عبارة ابن الأثير الأخيرة إلا إشارة واضحة لدور السياق في تحديد الدلالة المقصودة، وقد طبَّق شرَّاح الغريب ذلك، نكتفي بما أورده أبو عبيد في غريبه في شرح كلمة (القنوت): "في حديثه عليه السلام أنَّه قَنَت شهرا في صلاة الصبح بعد الركوع يدعو على رِعل وذَكوان،قال أبو عبيد: قوله: قنت شهرا هو ههنا القيام قبل الركوع أو بعده في صلاة الفجر يدعو؛ وأصل القنوت في أشياء: فمنها القيام وبهذا جاءت الأحاديث في قنوت الصلاة لأنَّه إنما يدعو قائما. ومن أبين ذلك الحديث الآخر أنَّ النبي عليه السلام سئل: أيّ الصلاة أفضل؟ قال: طول القنوت، يريد طول القيام. ومنه حديث ابن عمر أنَّه لمسُئل عن القنوت فقال: ما أعرف القنوت إلا طول القيام ثم قرأ ﴿أَمَّنْ هُوَ قَانِتٌ آنَاء اللَّيْلِ سَاجِداً وَقَائِماً﴾.[٥١] قال أبو عبيد: وقد يكون القنوت في حديث ابن عمر هذا الصلاة كلها ألا تراه يقول: ساجدا وقائما؟ ومما يشهد على هذا الحديث عن النبي عليه السلام قال: مَثَل المجاهد في سبيل الله كمثل القانت الصائم. قال أبو عبيد: يريد بالقانت المصلي ولم يُرد القيام دون الركوع والسجود. وقد يكون القنوت أن يكون ممسكا عن الكلام في صلاته.

ومنه حديث زيد بن أرقم قال: كنا نتكلم في الصلاة يكلم أحدنا صاحبه إلى جنبه حتى نزلت هذه الآية ﴿وَقُوْمُوْا لِلهِ قَانِتِيْنَ﴾ فأمرنا بالسكوت ونُهينا عن الكلام".[٥٢]

وكما أنَّ السياق يكون محتكما في بيان الدلالة المتطورة في غريب الحديث؛ فكذلك يُستند إليه في الرجوع إلى الدلالة الأصلية، ففي الحديث: "إذا دُعِيَ أحدُكم إلى طعام فَلْيُجِبْ فإنْ كان مفطِراً فَلْيَأْكُلْ وإن كان صائماً فَلْيُصَلِّ".[٥٣] فلا يظنَّ ظانٌّ أنَّ المقصود هنا الصلاة بمفهومها الشرعي ذي الدلالة المتطورة لأنها الأشهر والأكثر شيوعاً، بيد أنَّ السياق صرفها لدلالتها الحقيقية وهي الدعاء؛ إذ المقصود الذي لا يحتمل السياق غيره هو: فليدع للمُضيف بالخير والبركة والمغفرة.[٥٤]

السياق وتوجيه دلالة الكلمات الجديدة:

من المعلوم أنَّه قد سمعت من النبي صلى الله عليه وسلم ألفاظ وتراكيب لم تُسمع قبله، وقد لجأ شرَّح الغريب بالسياق اللغوي لمعرفة دلالة تلك الألفاظ والتراكيب، ففي حديث النبي عليه السلام أنَّ رجلا أتاه وهو يقاتل العدو فسأله سيفا يقاتل به فقال له: "فلعلك إن أعطيتك أن تقوم في الكيّول"قال أبو عبيد: "قوله الكيول يعني مؤخر الصفوف وسمعته من عدة من أهل العلم ولم أسمع هذا الحرف إلا في هذا الحديث"،[٥٥] فبما أن أبا عبيد لم يسمع هذا الحرف من قبل فقد فسره بناء على السياق الذي ورد فيه الحديث(سياق الحال)، وكذلك سياق المقال كان موجها لهذه الدلالة، وعلى هذا فسَّروا ألفاظا كثيرة لم تُسمع من غيره صلى الله عليه وسلم ، منها الثفاء،[٥٦] والزمارة،[٥٧] الجدف،[٥٨] الصِّير.[٥٩]

سياق الحال في غريب الحديث: أما العناية بسياق الحال في الحديث النبوي فهي مما توافر وتواتر عند شرَّاح غريب الحديث، فقد وردت في الحديث النبوي عباراتٌ كثيرةٌ لا تُفهم إلا باستصحاب سياق الحال المتضمن للمقام والسياق الثقافي والاجتماعي، سيما إذا استصحبنا معنا صلة الحديث النبوي بالحياة الاجتماعيَّة وبالأشخاص وعاداتهم وطبائعهم، وقد يُراعي

النبيُّ صلى الله عليه وسلم أحوال الناس ويخاطبهم حسب عاداتهم وطبائعهم وقبائلهم ولغاتهم ولهجاتهم، فمَنْ يقرأ أحاديث النبي صلى الله عليه وسلم حين قدِم عليه وفد نهد،[٦٠] وذي المشعار الهمداني،[٦١] ووائل بن حجر الكندي،[٦٢] يجد أنَّه صلى الله عليه وسلم خاطبهم بلغتهم، مراعاة للمقام، وليطابق المقال مقتضى الحال. حتى أن علياً رضي الله عنه قال له مرة: "يا رسول اللّه نحن بنو أبٍ واحد ونراك تكلم وفود العرب بما لا نفهم أكثره".[٦٣] وحرِص الصحابة على رواية الأحاديث كما وردت، فلا يرَووُنها بمعزلٍ عن سياق المقام الواردة فيه، فساعد ذلك الشراح على فهم دلالاتها، وأنَّى لهم فهمها إذا لم يعرفوا سياق ورودها؟

ومن الأمثلة على استصحاب سياق الحال في شرح غريب الحديث قوله صلى الله عليه وسلم: "لا صرورة في الإسلام"،[٦٤] اعتمد شرَّاح غريب الحديث على الأصل العام لكلمة صرورة هو: الحبس والمنع أو الجمع، ثمَّ إنَّ الكلمة نُقِلت نقلاً مجازياً اعتماداً على هذا الأصل العام، فمنهم من قال أن معنى الصَّرورة في الحديث التبتل وترك النكاح، واستدل بقول النابغة الذبياني (من الكامل):

لَو أَنَّها عَرَضَت لِأَشمَطَ راهِبٍ عَبَدَ الإِلَهِ صَرورَةٍ مُتَعَبِّدِ

لَرَنا لِبَهجَتِها وَحُسنِ حَديثِها وَلَخالَهُ رُشداً وَإِن لَم يَرشُد"[٦٥]

ثم ذكر ابن الأثير أن: "الصرورة أيضاً الذي لم يحج قط".[٦٦] واستدل على ذلك بأنَّه "كان الرجل في الجاهلية إذا أحدث حدثاً فلجأ إلى الكَعْبة لم يُهَجْ، فكان إذا لقيه وليُّ الدم في الحرم قيل له هو صرورة"،[٦٧] فموضع الشاهد هنا فيما ذكره ابن الأثير في معنى الصرورة استناداً إلى عُرْفٍ وعادة كانت سائدة عند العرب، وهو داخل سياق الحال بلا شك، وعليه فسروا ألفاظاً مثل العتيرة،[٦٨] والفرعة[٦٩] والمرباع[٧٠] وغيرها.

ومن شدَّة حرص الصحابة على رواية الأحاديث كما وردتْ "ما تنبضُ به الأحاديث من حركات صادرة عن الناطق به صلى الله عليه وسلم أثناء النطق به، باعتبار هذه الحركات ركناً من أركان السياق المقامي المرافق للحديث"،[٧١] وقد عدَّ الجاحظ الإشارة من أدوات

البيان والدلالة على المعاني،[٧٢] ويولي علم اللغة الحديث الإشارات والحركات الصادرة في الموقف الكلامي اهتماما كبيرا، وهي في النظرية السياقية عنصر من عناصر سياق الحال.

وللإشارة بأنواعها حضور متميز في الحديث النبوي، وقد جعلها النبي صلى الله عليه وسلم قائمة مقام النطق في كثير من الأحيان،[٧٣] فالإشاحة بالوجه كانت تعبيرا عن الغضب كما ذكر هند ابن أبي هالة في وصفه صلى الله عليه وسلم قال: "إذا غَضِب أعْرَض وأشاحَ". قال ابن قتيبة: "والإشاحة تكون بمعنَيَيْن أحدهما الجِدُّ في الأمر يقال أشاح إذا جَدَّ والآخر الإعْراض بالوَجْه يقال أشاح إذا عدَل بوجْهِه وهذا معنى هذا الحرف في هذا الموضع".[٧٤] وقد تنوعت إشارة النبي صلى الله عليه وسلم حسب الموقف، فلم تكن واحدة تختلط على الصحابة، وقد فهم ذلك الصحابة ومن بعدهم، ففي وصف هند: "كان إذا أشارَ أشار بكَفّه كُلّها". قال ابن الأثير: "أراد أنّ إشاراتِه كانت مُخْتَلِفة فما كانَ منها في ذِكر التَّوحِيد والتشهد فإنه كان يُشير بالمسبّحة وحدَها وما كان منها في غير ذلك فإنَّه كان يُشير بكفِّه كلها ليكون بين الإشارَتَين فَرْق".[٧٥]

وثمة أحاديث أخرى تضمنت إشارات مختلفة نذكر بعضا منها: حديث "فُتِحَ اليومَ من رَدْم يأجوج ومأجوج مثلُ هذه وحلَّق بإصْبَعيه الإبهام والتي تليها وعَقَد عَشْرا"، قال ابن الأثير: " أي جعل إصْبَعيه كالحَلْقة. وعقدُ العشر من مُواضَعات الحُسّاب وهو أن يجعل رأس إصْبَعه السَّبابة في وسَط إصْبعه الإبهام ويَعْملها كالحلقة"،[٧٦] وحديث الصوم: "الشَّهْرُ هَكَذَا وهَكَذَا وَخَنَسَ إِبْهَامَهُ"،[٧٧] أي قبضها في الثالثة.[٧٨]

وأخيراً وليس آخرا: إنَّ ما سقناه يؤكِّد جليا قصب السبق لعلماء العربية في معرفة دور السياق والعمل به في فهم النصوص، وتراثنا زاخر بالأدلة على فهمٍ عميقٍ للغة وطبيعتها ودورها في التواصل، ونحتاج- فقط – لأن نسبر أغواره ولا نتركه غفلاً مسهواً عنه لنستجدي نظرياتنا من الغرب ونمجّدها وننبهر بها.

هوامش البحث:

[1] هي كتب اهتمت بالكشف عن معاني ألفاظ الأحاديث التي تخفى على الكثيرين خصوصاً بعد أن انحسرت السليقة العربية وخالطت العجمة الألسن.

[2] انظر: ابن منظور، محمد بن مكرم، **لسان العرب**، (القاهرة: طبعة دار صادر، د. ت)، مادة: سوق.

[3] انظر: انجيرو، بيير، **علم الدلالة**، ترجمة: منذر عياش، (دمشق:دار طلاس للدراسات والترجمة والنشر، ط١، د. ت)، ص٩٦.

[4] التداولية مصطلح أطلق على نظرية لغوية حديثة تعدُّ تطورا من نظرية السياق ، ويتلخص مفهومها في دراسة استعمال اللغة في الطبقات المقامية المختلفة.

[5] انظر: بودرع، عبد الرحمن، **منهج السياق في فهم النص**، (قطر:كتاب الأمة، وزارة الأوقاف والشئون الإسلاميَّة، العدد١١١، قطر، ط١، ٢٠٠٧)، ص ٢٧.

[6] انظر: خليل، حلمي، **الكلمة دراسة لغوية معجمية**، (الإسكندرية: الهيئة العامة للكتاب، ١٩٨٠)، ص٢١٣

[7] انظر: فندريس، جوزيف، **اللغة**، ترجمة: محمد القصاص وعبد الحميد الدواخلي، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، ١٩٥٠)، ص ٢٣١.

[8] انظر: أولمان، ستيفن، (١٩٨٦)، **دور الكلمة في اللغة**، ترجمة: كمال بشر، (القاهرة: مكتبة الشباب، ط١٠، ١٩٨٦))، ص.٦٦ – ٦٧ .

[9] انظر: خليل، حلمي، **الكلمة دراسة لغوية معجمية**، ص.٢١.

[10] انظر: حسان، تمام، **اللغة العربية مبناها ومعناها**، (القاهرة: دار عالم الكتب، ط٣، ١٩٩٨)، ص١٧٨ .

[11] االنظر: الخولي، محمد علي، **معجم علم اللغة النظري**، (بيروت: مكتبة لبنان، ط١، ١٩٨٢)،)، ص٢٥٩.

[12] انظر: نصر، هادي، **علم الدلالة التطبيقي في التراث العربي**، (الأردن، إربد: دار عالم الكتب الحديثة، ط١، ٢٠٠٨)، ص٢١٦ – ٢١؛ وخليل، حلمي، **الكلمة دراسة لغوية معجمية**، ص٢١٣.

[13] انظر: نصر، هادي، **الدلالة التطبيقي في التراث العربي** ،ص١٩٢ .

[14] انظر: السيوطي، عبد الرحمن جلال الدين، **المزهر في علوم اللغة وأنواعها**،شرح: محمد جاد الله المولى بك، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، وعلي محمد البجاوي، (القاهرة: دار التراث، ط٣، د. ت)، ج١، ص٣٩٨.

[15] انظر: ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي، **البداية والنهاية**، (بيروت: مكتبة المعارف، د. ت)، ج٧، ص٢٩٢.

[16] انظر: بشر، كمال، **علم اللغة الاجتماعي (مدخل)**، (القاهرة: دار الثقافة العربيَّة، ١٩٩٤)، ص ٦٦.

[17] انظر: ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، **مجموع الفتاوى**، جمع وترتيب: عبد الرحمن بن محمد بن قاسم، (الرباط: مكتبة المعارف، الرباط، د. ت)، ج٦ ، ص.١٨ .

[١٨] انظر: ابن القيم، محمد بن أبي بكر، **بدائع الفوائد**، تحقيق: هشام عبد العزيز عطا وآخرين، (مكة المكرمة: مكتبة الباز، ط١، ١٩٩٦)، ص. ٨١٥.

[١٩] انظر: حبلص، محمد يوسف، **البحث الدلالي عند الأصوليين**، (القاهرة: مكتبة عالم الكتب، ط١، ١٩٩١)، ص١٢

[٢٠] انظر: الشافعي، أبو عبد الله محمد بن إدريس، **الرسالة**، تحقيق: أحمد محمد شاكر، (القاهرة، د.ط، ١٩٣٩)، ج١، ص٥٢.

[٢١] انظر: الغزالي، أبو حامد محمد بن محمد، **المستصفى في علم الأصول**، تحقيق: محمد عبد السلام عبد الشافي، دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٩٣)، ص٢٢٨.

[٢٢] سورة الزمر – الآية ٧٣.

[٢٣] سورة البقرة – الآية ١٦٥ .

[٢٤] سورة الأنعام – الآية ٢٧

[٢٥] انظر: سيبويه، أبو بشر عثمان، **الكتاب**، تحقيق: عبد السلام هارون، (القاهرة: مكتبة الخانجي، ط٢، ١٩٨٢)،ج٣، ص١٠٣ .

[٢٦] انظر: ابن جني، أبو الفتح عثمان، **الخصائص**، تحقيق: محمد علي النجار، (بيروت: عالم الكتب، د. ت)، ج١، ص٢٤٦.

[٢٧] انظر: المرجع السابق نفسه، ص٢٤٨ .

[٢٨] انظر: الخطابي، حمد بن محمد بن إبراهيم، **غريب الحديث**، تحقيق: عبد الكريم إبراهيم العزباوي، (مكة المكرمة: جامعة أم القرى، ١٩٨٢)، ج١، ص٥٦؛ وابن الأثير، أبو السعادات المبارك بن محمد، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، تحقيق: طاهر أحمد الزاوى و محمود محمد الطناحي، (بيروت: المكتبة العلمية، ١٩٧٩)، ج٢، ص٤١١.

[٢٩] ابن الأثير، المرجع نفسه، ج. ٢، ص. ٢٤٣.

[٣٠] انظر: الزمخشري، محمود بن عمر، **الفائق في غريب الحديث**، تحقيق: علي محمد البجاوي و محمد أبي الفضل إبراهيم، (لبنان: دار المعرفة، لبنان، ط٢، د. ت)، ج١، ص٤٢١.

[٣١] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج٤، ص٣.

[٣٢] انظر: أبو عبيد، القاسم بن سلام، **غريب الحديث**، تحقيق: محمد عبد المعيد خان، بيروت: دار الكتاب العربي١٠٧٤)، ج٣، ص٣٠-٣١.

[٣٣] انظر: ابن جني، **الخصائص**، ج٢، ص١٥٢-١٥٣.

[٣٤] انظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٢، ص٨٥٤.

[٣٥] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج٤، ص٣١٢.

[٣٦] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج٥، ص١٤٣.

[٣٧] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج٥، ص٤٢٩ .

[٣٨] انظر: الخطابي، **غريب الحديث** ج٢، ص١٠٣.

[٣٩] انظر: ابن الجوزي، أبو الفرج عبدالرحمن بن علي، **غريب الحديث**، تحقيق: عبد المعطي أمين قلعجي، (بيروت: دار الكتب العلمية، ط١، ١٩٨٥)، ج٢، ص٤٧٢.

[٤٠] انظر: الزمخشري، **الفائق في غريب الحديث**، ج٤، ص١١١.

[٤١] انظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٥، ص٤٢٩.

[٤٢] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ص٥١٠.

[٤٣] انظر: **المرجع السابق نفسه**.

[٤٤] انظر: **المرجع السابق نفسه**.

[٤٥] انظر: **المرجع السابق نفسه**. ص٣٢٢ .

[٤٦] انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة (هتر).

[٤٧] انظر: ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم، **غريب الحديث**، تحقيق: عبد الله الجبوري، (بغداد: (ط.١، مكتبة العاني ١٩٧٧)، ج١، ص١٧١.

[٤٨] انظر: ابن منظور، **لسان العرب**، مادة: قنت.

[٤٩] انظر: ابن قتيبة، **غريب الحديث**، ج١، ص١٧١.

[٥٠] انظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٤، ص١٨٣.

[٥١] سورة الزمر آية :٩.

[٥٢] انظر: أبو عبيد، القاسم بن سلام، **غريب الحديث**، ج٣، ص١٣٢-١٣٤.

[٥٣] انظر: الزمخشري، **الفائق في غريب الحديث**، ج٢، ص٣٠٩؛ وابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٣، ص٥٠.

[٥٤] انظر: الزمخشري، **المرجع السابق نفسه**، ج٢، ص٣٠؛ وابن الأثير، **المرجع السابق نفسه**، ج٣، ص٥٠.

[٥٥] انظر: أبو عبيد، **غريب الحديث**، ج٢، ص٢٤٦.

[٥٦] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ص٤٠-٤١. وهو حب الرشاد ، وقيل غيره.

[٥٧] انظر: **المرجع السابق نفسه** ،ج١١، ص٣٤١. وهي الزانية.

[٥٨] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج٢، ص٤٢. وهو ما لم يغط من الشراب.

[٥٩] انظر: **المرجع السابق نفسه**، وهو الشقُّ في الباب.

[٦٠] انظر: الزمخشري، **الفائق**، ج٢، ص٢٧٨.

[٦١] انظر: **المرجع السابق نفسه** ج٣، ص٤٣٣.

[٦٢] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج١، ص١٤.

[٦٣] انظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج. ١ ، ص. ٣ .

[٦٤] انظر: أبو عبيد، **غريب الحديث**، ج٣، ص٩٧؛ وابن الأثير، **االمرجع السابق نفسه**، ج٣، ص٤ .

[٦٥] انظر: أبو عبيد، **المرجع السابق نفسه**، ج٣، ص٩٧.

[٦٦] انظر: ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٣، ص٤٤ .

[٦٧] انظر: ابن الأثير، **المرجع السابق نفسه**، ج٣، ص٤٤.

[٦٨] العَتيرة :الرجبية وهي ذبيحة كانت تذبح في رجب يتقرب بها أهل الجاهلية ثم جاء الإسلام فكان على ذلك حتى نسخ بعد غريب الحديث لأبي عبيدج١، ص١٩٥.

[٦٩] هو أول ولد تلده الناقة وكانوا يذبحون ذلك لآلهتهم في الجاهلية فنهوا عنه، غريب الحديث لأبي عبيد، ج١، ص١٩٤.

[٧٠] كان الملك يأخذُ الرُّبع من الغنيمة في الجاهلية دُون أصحابه ويُسَمَّى ذلك الرُّبع : المِرْباع.

[٧١] انظر: بودرع، عبد الرحمن، **منهج السياق في فهم النص**، ص ١٤٤ .

[٧٢] انظر: الجاحظ، عمرو بن بحر، **البيان والتبيين**، تحقيق: فوزي عطوي، (بيروت: دار صعب، ط١١، ١٩٦٨)، ص٥٥.

[٧٣] انظر: العسقلاني، أحمد بن ابن حجر، **فتح الباري شرح صحيح البخاري**، (بيروت: دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٩)، ج٩، ص٤٣٨.

[٧٤] انظر: ابن قتيبة، **غريب الحديث**، ج١، ص٥٠٤.

[٧٥] انظر:ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج٢، ص١٢٦٥.

[٧٦] انظر: **المرجع السابق نفسه**، ج١، ص.١٠٣٢.

[٧٧] انظر: الحربي، إبراهيم بن إسحاق، **غريب الحديث**، تحقيق: سليمان إبراهيم محمد العايد،(مكة المكرمة، جامعة أم القرى،ط١، ١٩٨٥)، ج٣، ص١٠٣٨.

[٧٨] انظر : ابن الأثير، **النهاية في غريب الحديث والأثر**، ج، ص١٦٤.